

أنور الجندي

أعتقد أن التصوّر الصحيح لإسلامية الأدب هو تحريره من التبعية والنفوذ الأجنبي الوافد، والتماسه منهج القرآن، في تصور الأداء والمضمون للأدب (ولا نقول الإبداع)، من خلال عطاء النفس المؤمنة، والوجدان الأصيل، المؤمن بالله تبارك وتعالى، الملتزم لرضوانه، الراضي بقضائه، والذي يسلم نفسه لله تبارك وتعالى إسلاماً كاملاً، في سبيل الوصول إلى السكينة والأمن ورضاء النفس، دون أن يؤثر ذلك في إرادة الإنسان وحرية في التصرف والتزامه الأخلاقي.

والمسيطرة اليوم سيطرة فعلية على تصورات الأدب وفي مقدمتها: الكلاسيكية والرومانتيكية والواقعية والاشتراكية. فهذه قامت في الغرب في ظل تطورات مختلفة، حيث ارتبطت الكلاسيكية بالأدب اليوناني والروماني، بكل ما يحمله من تعدد الآلهة، والصراع القائم بينها من جهة، وبينها وبين الإنسان من جهة أخرى.

وقد صدرت الكلاسيكية عن القواعد التي وضعها أرسطو للشعر. وهذه القواعد في تصورها للحياة والكون تختلف عن تصورنا الإسلامي اختلافًا عميقًا، والكلاسيكيون يقصرون أعمالهم الأدبية على الجوانب المادية من حياة الإنسان، وما يدور حولها من العواطف والمشاعر.

أما الجوانب الروحية، وما فيها من تألق وصفاء، فهي لا تحظى بشيء من اهتمامهم. أما المفهوم الإسلامي للأدب، فهو يغطي الحياة المادية والحياة الروحية معاً. وكذلك (الرومانتيكية) التي أخرجت الأدب الأوروبي من الوثنية إلى تحرير

هذا في اعتقادي هو التصور الأصيل لإسلامية الأدب، ومن هنا فقد وجب أن يكون العمل الأول في مواجهة أخطار التبعية للتصور الغربي، الذي يصدر عن مضامين مختلفة تماماً من المضامين الإسلامية؛ لأنه يستمد وجوده من الفلسفة المادية أساساً، التي تنكر للألوهية والغيب والوحي،

وتقصر نفسها على المحسوس، وتتحرك في دائرة ضيقة، هي «الإنشطارية»، التي تتجاهل الجانب الآخر للإنسان: جانب الروح والمعنويات، وتنكر تماماً للالتزام الخلق، وتخوض في مستنقعات مريضة من النسبية، والتطور المطلق، والتنكر لثوابت القيم الأخلاقية، وارتباطها بالعقيدة.

فالإسلام حيث يقيم منهج «الثوابت والمتغيرات» ويجعل حركة المتغيرات تجري في دائرة الثوابت، نجد

الغرب ينطلق من مفهوم التطور المطلق، والنسبية، وربط الأخلاق بالمجتمعات والعصور، ومن هنا فالعمل الأول الذي يسبق رسم التصور الإسلامي للنفس والحياة: هو: تصحيح مفاهيم الأدب الوافدة من الغرب

66 واجبنا تصحيح المفاهيم

الوافدة والمسيطرة

على مجالات الأدب عندنا

99

تحرر من التبعية

أما القضايا التي يجب أن تحرر من التبعية فهي :

أولاً: القصة :

وأبرز أخطاء القصة المعربة هي فساد التصور للنفس الإنسانية ، وإقامة الفكرة دائماً على المؤامرة والاغتصاب ، وحرية الغريزة ، والاندفاع وراء الأهواء ، والتوسع في تصوير هذه الأوضاع . وهذا يقوم على أساس فساد فهم العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، في مجالات الزواج والمعاشرة ، والصداقة والتعامل وغيرها .

والصورة التي يقدمها هذا المفهوم لا تمثل النموذج الإسلامي أو الذي يعرفه المجتمع الإسلامي ، فهو غريب عنه غربة كاملة بكل ما فيه من تجاوزات وقسوة وإباحية وانطلاق دون تقدير للضوابط ، أو الحدود القائمة بين الحلال والحرام ، وبين الزواج والبغاء ، وبين العفة والإباحية ، فالكاتب المسلم حين يصور النفس الإنسانية ، سواء في حالتي سلامتها أو عطبها ، ينفر من الاتجاه المنحرف ، ويدعو إلى تهذيب العواطف ، ويتجاوز التفاصيل التي تجرح الحياء ، ويتعفف في التعامل والحوار .

ولكن الصور التي تقدمها الكتابات المعروضة اليوم ، كلها تستمد منهجها من التصور الغربي للقصة ، وللمجتمع ، وهي تسرف في محاولة القول بأن المجتمع الإسلامي فاسد اعتماداً على بعض الظواهر في بعض البيئات ، وهكذا يكون الكاتب المسلم مختلفاً تماماً في تصوير النفس الإنسانية عن الكاتب الذي يستمد مفاهيمه من الآداب الغربية التي تتسم بظاهرة الإسراف في الفاحشة ، والكشف والإباحة . وقد نشأ في بلادنا هذا الأدب الذي أطلق عليه (أدب الفراش) ، نتيجة التقليد والتبعية بالنقل والترجمة ، فإذا قيل إنه تصوير للنفس الإنسانية ، فإننا نقول إنها ليست النفس الإنسانية السوية المؤمنة التي يفرزها المجتمع الإسلامي ، ولكنها النفس المنحرفة الداعية إلى نشر الإباحية وكشف العورات ، وأخطر ما في هذا التصور هو تلك الصورة غير الكريمة التي ترسم للمرأة المسلمة وكأنها تحت تأثير الفقر تباع عرضها ، وتستسلم للدُّفيلة ، وهذا تصور لا يوجد في مجتمعنا ولا يمكن للمرأة التي تعرف ربها أن تباع عرضها ، والمثل العربي يقول : (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها) .

الأدب من قيود العقل والواقع ، والانطلاق في رحاب الخيال الممنهج . وهذا يختلف أيضاً مع مفهوم الإسلام للأدب ، الذي هو أدب واقعي يحجر جوادان اثنان لا يستغنى أحدهما عن الآخر . وهما جواد العاطفة وجواد العقل . ثم إن الرومانسية تدّين بأن الغاية من الأدب هي المتعة ، أما المفهوم الإسلامي فلا بد أن تتوافر فيه الفائدة العملية والمتعة النفسية معاً ، بحيث يكون نافعاً وممتعاً في وقت واحد .

66 هذه القضايا الخطيرة

يجب أن تتحرر

من التبعية للغرب

99

والرومانتيكيون لا يرون لأخلاقية الأدب أي ضرورة ، ولكن الإسلام يقرر سمو الأخلاق والترفيع عن الدنيا ، كما أنهم يبالغون في شأن العقل ، أما الإسلام فيرى أن العقل مصباح ، نوره من الوحي .

كذلك الأمر في الواقعية الأوروبية ، والواقعية الاشتراكية ، والرمزية ، والسريرية ، والمذاهب

الجديدة كافة ، كالحداثة والبنوية ؛ كل هذه مخالفة للأصالة والفطرة والدين والعقل ، بل إنها إذا أردنا الحق إنما تهدف إلى تدمير القيم ، وتدمير الأخلاق ، وتدمير الثوابت ، وهي تدرى القديم ؛ لأنه يرتبط بالدين .

لقد قام الأدب اليوناني والروماني والغربي جملة على أساس (عبادة الجسد) وتقديس الشهوة والإلحاد ، وهو أساس مختلف تماماً عن التصور الإسلامي الذي قام على العفاف والأخلاق .

وإذا وضحت النظرة الإسلامية للأدب فإن الأمر يكون خطيراً ؛ لأنه يتصل بالعديد من القضايا اللغوية ، والترجمة ، ويتصل بالقصة والشعر ، ويقف موقفاً واضحاً من كتابة تاريخ الأدب والنقد ، والأدب الإنشائي . وهي في قيمها الأصلية القرآنية تتعارض تماماً مع مذاهب الحداثة والبنوية والعبث واللامعقول ، وترى أن كل هذه المذاهب تتعارض مع الأصالة والفطرة ، وتختلف مع المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي ، وهي تمثل مرحلة خطيرة من مراحل تطور الأدب الغربي ، بعد انفصاله عن الدين والأخلاق ، وتجاوزها لها ، وخصومته الشديدة لكل ما يتصل بها ، بل لا نبالغ إذا قلت إنها حرب على كل (الثوابت) ، التي أرساها الدين الحق سواء اللغة أو التراث ، ودعوة مندفعة اندفاعاً شديداً نحو التطور المطلق . تحت اسم المستقبلية والتحديث ، دون ارتباط بالجذور والأسس ، مما يعرض النفس البشرية والمجتمعات والحضارة نفسها إلى ارتطام خطير .

أما الشعر فقد تجاوز كل الحدود، حين اندفع تحت تأثير توجيهات بعض خصوم الإسلام، أمثال لويس عوض ويوسف الخال، إلى ما أطلق عليه (تخطيط عمود الشعر)، واستخدام الرموز والأساطير التاريخية، وقد تجاوزت النماذج التي قدمها الشعراء في السخرية بمفهوم الإله والألوهية كل حد، (صلاح عبد الصبور - سميح القاسم، وغيرهما)، في شعر ردي، وسخرية بالغة. واحتقار تام للغة العربية وقواعدها (ومنتها إدخال أل التعريف على الفعل بصورة رمزية تهدر حرمة اللغة وقداستها).

ويطغى شعر سميح القاسم بالسخرية من الإسلام، ويرى أنه طقوس همجية، وأن الإله أسطورة كانت ثم بادت، كما يحمل طابع العلمانية في إنكار منهج الإسلام، وفي دعوته إلى الماركسية، والإلحادية المسرفة، حيث تستعمل في النظم مجموعة من الألفاظ والمصطلحات المتردية، أمثال المضاجعة والخانات والشراب واللوطية في نبرات شديدة، وإسفاف في الطرح.

وأخطر ما تحمله رياح السموم دعوى (الحدائث) التي يحمل لواءها (أدونيس) وهي من أخطر الدعوات التي ترمي إلى إحياء الفكر الباطني، وهدم ثوابت اللغة والأدب، والجري وراء لغة مهومة مسرفة في الرموز، والاعتناد على الأسطورة، بهدف تدمير النموذج الخاص بالبيان العربي، الذي كونه القرآن والحديث النبوي.

ثالثاً: الترجمة:

وقضية الترجمة من أخطر القضايا التي تواجه أسلمة الأدب، فقد انحرفت الترجمة خلال العقود الأخيرة انحرافاً شديداً إلى ترجمة وثنيات الفكر الغربي، سواء في مجال القصة، أو الفلسفة أو الشعر، على نحو خطير، يحاول كتابه أن يعرفوا الشباب المسلم، ليهدموا فيه حصانة الإيمان، حيث تُرجم كثير من الأسفار الأجنبية الإباحية، والقصص الجنسية، وكتب الفلسفة المادية التي تحاول أن تقنن الفساد. وفي القرن الثاني الهجري استطاع

المسلمون إحكام قبضتهم على الاختيار. أما في العصر الحديث، وفي ظل النفوذ الأجنبي فقد ترجمت كتب كثيرة تحالف التوجه الإسلامي مخالفة شديدة وتغرس بذوراً مسمومة في تربة العقل المسلم.

وقد تركت الترجمات غير ضوابط، فاختلطت المفاهيم، وتضاربت العصور، وترك ذلك الركam المختلط فساداً كبيراً، وفتح الباب أمام الإلحاد والإباحية، وظن الناس أن ما يقرءونه عن عصور مختلفة، أو عن أمم مختلفة، يتطابق مع وجهتهم، وهذا في الحقيقة يختلف مع وجهتنا وعقائدينا، ومن هنا حدث خلط شديد

التصور الأصيل للإنسان والكون والحياة موجود في القرآن الكريم

فقد أخذنا نترجم مالمسنا في حاجة إليه ونترك ما يلزمنا ذلك، لأن التصور الأجنبي فرض علينا ترجمة الفلسفات والإباحيات، وحجب عنا ترجمة العلوم والتجارب التي تدفع الأمم إلى الأمام.

رابعاً: الفلكلور:

وكان الفلكلور والأدب الشعبي وما يسمى الأنثروبولوجيا من السموم النافعات التي دفعنا النفوذ الأجنبي إلى إحيائها، والتركيز على عصور ما قبل الإسلام، والبحث عن الأزجال والأمثال والمصطلحات التي عرفتها عصور الضعف، والتي لا تمثل إلا طفولة البشرية، والتي لا تفيد في إحيائها إلا أن تهدم الأمثال والحكم الإسلامية البليغة البيان، التي ترتفع بالنفس الإنسانية إلى مستوى البيان القرآني والسنة النبوية. ولقد جاء الشعر الإسلامي أصدق تعبيراً، وأعمق أداءً، وأخلد على الزمن، من المواويل الشعبية. وهذه الأمثال الساذجة والتي تبين أن الدعوة إلى إحيائها قد ارتبطت بالنفوذ الاستعماري الغربي، والوثنيات، والأساطير والخرافات، التي جاء الإسلام للقضاء عليها، وكشف زيفها، من كل ما يتصل بتصورات مضللة، وأمثال ساذجة. ولقد تكشف فساد نظرية تطور العائلة على أناس أن المرأة كانت مشاعة في عهد البشرية الأولى، وفساد نظرية تطور الدين من الوثنية إلى التوحيد، فقد جاء التوحيد مع أول مراحل الإنسان على الأرض

خامساً: العاميات :

وكانت العاميات هي أخطر ما يحجب الرؤية الإسلامية للأدب، فقد عمد النفوذ الأجنبي إلى الدعوة إليها، وفرضها على الصحافة، والمسرح، والقصة، والحوار الإذاعي، وغيره، حتى على حوار المدرسين في المدارس والجامعات وذلك في حرب خفية للعربية الفصحى : لغة القرآن، التي جرت محاولات التغريب للنيل منها، وإبعادها، في دعوته إلى الكتابة بالأسلوب العامي، أو إنشاء ما يسمى «اللغة الوسطى» التي تستمد من العامية وجودها، وكل ذلك في سبيل إيجاد فجوة بين بيان الكتابة العربية في العصر الحديث، وبين بيان القرآن الكريم. وعلى أمل أن تتسع هذه الفجوة حتى تتوارى اللغة العربية الفصحى؛ تلك اللغة الجامعة بين أجزاء الوطن العربي، وتقلد اللهجات الإقليمية، فضلاً عن خلق جو من الانفصال بين البيان العربي المعاصر وبين التراث المتمثل في القرآن والسنة، وكتابات السلف في الفقه والعلوم والاجتماع والتربية.

وهكذا نرى أن (أسلمة الأدب) تتطلب مجهوداً واضحاً، وعملاً واسعاً، حيث نقضي على كل هذه الثغرات التي يراودها احتواء التصور الوجداني والنفسي والاجتماعي الإسلامي، في مؤامرة خطيرة محبوكة الأطراف، من أجل تغريب البيان، والأداء العربيين الإسلاميين.

ولقد قامت نظريات النقد الأدبي المعاصر على نظريات غربية، صورت الإنسان بصورة الحيوان، وأخضعت مفاهيم الأدب لأربعة تيارات خطيرة هي :

أولاً: نظرية التطور الداروينية، وما يتصل بها من تطور مطلق، يتصل بالمجتمع كله، وأن الإنسان حيوان ناطق.

ثانياً: نظرية فرويد، وما يتصل بها من تصور، بأن الجنس وحده هو منطلق الرغبات الإنسانية.

ثالثاً: نظرية ماركس، وما يتصل بها من أن حركة الحياة تحكمها لقمة العيش.

رابعاً: الفلسفة المادية، التي تقرر أنه لا يوجد إلا المحسوس وحده وأن الغيبيات والنبوة والأخلاق غير معترف بها. وقد أكدت الأبحاث والدراسات خلال العقود الخمسة الماضية فساد هذه النظريات، وقدمت أبحاثاً علمية حقيقية تكشف عن عجز هذه النظريات عن الوصول إلى الحقيقة، وأنها لم تكن علماً على الإطلاق، وإنما كانت ولا تزال فروضاً عقلية خاصة، بعد أن تغيرت الأصول العلمية التجريبية التي قامت عليها هذه النظريات، وبعد سقوط الماركسية في بلادها وسقط رأسها.

وإزاء هذا، فقد سقطت تماماً التصورات التي قدمها الغرب لمفهوم الأدب جملة وتفصيلاً، مما يستدعي أن نعيد النظر مرة أخرى في المقومات الحقيقية التي يجب أن نستمدّها من الفكر الإسلامي عامة ومن القرآن والسنة بصفة خاصة حيث نجد التصور الأصيل للنفس الإنسانية، وللعلاقات بين الرجل والمرأة، وبين الآباء والأبناء، وعن المسؤولية الفردية، والالتزام الأخلاقي، اللذين يجب أن يصنعا حركة الحياة للمسلم في المجتمع.

وبالجملة فإن التصور الإسلامي للأدب يقوم على عدة قواعد أساسية :

١ - تأكيد الانتهاء الإسلامي، والالتزام الإسلامي ومسؤولية القلم، وأمانة الدعوة والتبليغ.

٢ - الارتقاء بالإنسان، وتجاوز حالات ضعفه، وعدم التركيز على نقائصه أو تحسينها.

٣ - إعادة الثقة إلى النفس الإنسانية، في مغفرة الله تبارك وتعالى ورحمته، وفتح صفحة جديدة من العمل الصالح.

٤ - التصدي للحركات الأدبية، والمناهج الأدبية المنحرفة، وإبراز مخاطرها وسيئاتها ومفاسدها.

٥ - توجيه المجتمع إلى الاستعلاء على الفاحشة والإباحية، والعودة إلى الأصالة والمنابع والقيم الإسلامية العليا.